



ملامح من شخصية الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي

ذ. أحمد بومزكو *

مقدمة :

تزخر منطقة أقا بفعاليات وشخصيات دينية – علمية ، أسهمت بحظ وافر في مسار الحركة الفكرية والصوفية بمنطقة سوس. إن مسعانا من خلال هذا العرض هو توضيح دور هذه الفعاليات ، من خلال تحليل جوانب من شخصية مَحمد بن مبارك الأقاوي ، علما بأن دراسة نموذج شخصية محددة كنتاج تاريخي ، يمتاز بالتعقيد.

إن معرفتنا عنه تظل سطحية إذا اكتفينا بما ورد عنه في المصادر ، فهي تتسم بالعمومية وتعيد نفس المعطيات، وتقتصر على أوصاف وملامح شخصيته البارزة. بيد أنه تختفي وراءها شخصية تحتل أخبارها حيزا مهما في ذاكرة ساكني المنطقة ، وإن اسمه ملازم للحظة التقارب بين الصلحاء والحركة السعدية في نهاية القرن 15 ، فهو أحسن مثال يعبر عن هذه اللحظة التاريخية البارزة. ويعتبر المرحوم المختار السوسي أول من وضع ترجمة مفصلة للأقاوي . ومهما يكن فإننا سننطلق من الإشارات ، ولو كانت تلميحية وبسيطة، لمحاولة مقارنتها وتركيبها، وبالتالي طرح القضايا التي من شأنها أن تساعد على فهم ورسم بعض الحقائق التاريخية حول حياة الشيخ الأقاوي . ونصبو من ذلك فهم بواعث الالتزام الصوفي في علاقته بالمجتمع ، وفي ذات الوقت استخراج بعض الحقائق حول انبثاق الحركة الصوفية بمنطقة سوس.

* أستاذ باحث من تزنيت.

1. الإطار العام لنشأة الشيخ الأقاوي :

1 ـ 1 : الوضعية السياسية :

بالنسبة لفترة حياة الشيخ كإطار زمني عام ، يلاحظ أنـــها تكـــاد تطـــابق مرحلة ضعف الحكم الوطاسي ،الذي أبان عـــن ضعفـــه وعجـــزه بالمنطقـــة. وتتراءى مظاهر هذا الإخفاق في غياب سلطة مركزية فعلية " لأن بني وطـــاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس، ولم يكن لهم من الســـلطنة إلا الاســـم"(1). وقد عرف الإقليم بسوس أزمة حادة تفاعلت فيها عدة عوامل:

* إذا كانت القبائل وخاصة منها الجبلية تتحكم لأسباب موضوعيـــة فـــي مجالها، وتدبر شؤونها وفق ما توفره المنطقة اقتصاديا، وكذا ما تـــدره عليـــها المبادلات التجارية، فإن كل محاولاتها في الوحدة باءت كلها بالفشل(2). فحسب ما يورده الوزان بخصـــوص بـــلاد جزولة، كانت القبائل تفتقر إلـــى زعامـــة سياسية فعالة ،وتسير شؤونها بنفسها وفق أوفـــاق عرفية. حتى أنها تعيش فـــي حالة انقسام وحرب في غالب الأحيان(3).

* توالى مسلسل الكوارث الطبيعية والأوبئة خاصة وباء 917 / 11 - 1512 ، المصحوب بمجاعة جارفة (4).

* إلى جانب الوضع الداخلي المتأزم، يتراءى واقع آخر ساهم في تعميـــق الأزمة. يتمثل في التصدع الذي أحدثه التواجد البرتغالي على السواحل (5). ولم تبق الحالة عند هذا المستوى، بل تعمق الداء مـــن جـــراء اســـتحواذ القبـــائل الأعرابية المتحالفة مع البرتغاليين على المجالات السهلية(6). فإذا كـــان ســـكان السهول قد رضوا بالخزي والعار عن طريق استعطاف الأجانب وحلفائهم، فـــإن رد فعل سكان الجبال المحاصرين بشكل كبير في مجـــالات جبليـــة محـــدودة الإمكانيات ، كان عنيفا. ولا نعرف بالتحديد ملامح هذه المواجهة، إلا ما يـــرد في الكتابات البرتغالية من أن دفـــاع القبائل يفتقـــد إلـــى التنسيق والزعامـة(7) إن تأمين السبل في مثل هذه الظرفية موكول إلى زعماء الزوايا الجزولية.

1 ـ 2 : لحظة انبثاق الحركة الصوفية :

تكتسي الفترة الممتدة ما بين نهاية القرن 15 وبدايـــة القـــرن 16، أهميـــة خاصة باعتبارها المرحلة التي تبلور فيها الصلاح والولاية بشكل جلي. وكـــان الجنوب مؤهلا أكثر ليصبح حقلا خصبا لازدهار حركة الصلاح وذلك لعوامـــل منها :

* موقعه المتقدم في المواجهة مع البرتغاليين.
* التقليد الصوفي القديم (8).
* الحضور القوي والمكثف لظاهرة الزوايا،وخاصة تلك المتفرعة عن الطريقة الجزولية(9).

إن ما يثير الانتباه هو تواجد فعاليات صوفية تدعي الصلة بالشيخ الجزولي، وتتواجد مراكزها بمجالات استراتيجية(10).

لقد شعر السكان بحاجة إلى مساندة من قبل رجالات التصوف، الذين يكنون لهم نوعا من الولاء التقليدي، وكانوا يحتلون مواقع متميزة داخل مجال تأثيرهم. وتعكس حوليات المرحلة، اندفاع الزوايا والصلحاء لتعبئة المجاهدين من مختلف القبائل ، واسترجاع ثقة الأهالي ، ومناهضة الفوضى السياسية الناتجة عن التمزق والتشتت القبلي ، إلى جانب تأجيج الحماس لمواجهة الخطر البرتغالي المحدق بالبلاد، وذلك برفع شعار الجهاد، لتعويض تراجع السلطة المركزية(11). هكذا ولج الصلحاء الحقل السياسي من خلال القيادة الرمزية للسكان، واتسعت قاعدة عملهم ، وأصبحوا يمثلون قوة سياسية ــ اجتماعية. وفي هذه الظرفية المتميزة سيقع التقارب التاريخي بين الصلحاء والشرفاء السعديين(12). وكان للشيخ محمد بن مبارك الأقاوي الدور الكبير في هذا التوافق انطلاقا من مركز أقا.

1 ــ 3 : **واحة أقا : الخصوصيات والإشعاع :**

تبرز منطقة أقا كأهم مركز ديني ــ اقتصادي بالهامش الجنوبي للأطلس الصغير.ويمكن أن ندرك هذه الأهمية إذا نظرنا إليها من عدة مواقع :

* تواجد أقا على الطريق التجارية الأمامية الرابطة بين الصحراء جنوبا والأطلس الصغير شمالا عبر الممرات الطبيعية / التقليدية بجبل باني (13). لهذا اشتهرت المنطقة كمحطة أساسية للقوافل القادمة من السودان، خاصة بعد الضغط البرتغالي المفروض على المراكز التجارية الساحلية.

* تواجدها في موقع قريب من الأطلس الصغير، جعلها تلعب دورا أكثر تأثيرا وفعالية في صيانة التوازن والتعايش بين المستقرين في الشمال والرحل بالجنوب(14)، عن طريق حماية مصالح سكان القرى الاقتصادية، وخلق تجانس بين العنصرين. كما تعتبر مجالا للتنقل نحو درعة، وإن كان الأطلس الصغير لم يكن في أي وقت كان حاجزا أمام توغل وتحرك المجموعات البشرية(15).

* استقطابها لتحركات السكان المستمرة خاصة تلك المنبثقة عن حادثة تخريب "تامدولت" خلال القرن 8هـ (16). لهذا يرجع إشعاعها إلى العناصر النازحة من المدينة.

للإشارة ، فهذه المنطقة التي هي على اتصال مستمر بقبـــائل الرحـــل ، تبلور بها الصلاح منذ القدم: يعزى ويهدى باسا، صلحـــاء ركراكــة، بعــض صلحاء اليهود ...(17). وارتبط نموها بالإرث العلمي والفكري والمادي لتمنارت وتامدولت. وبلغت شأنا كبيرا كمركز للإشعاع الديني بعد تأسيس الزاوية، وهـي من الفروع الأولى للطريقة الجزولية. فحسب ما كتبه الوزان فقد كانت علــى عهد الأقاوي من المراكز العلمية والاقتصادية المشـــهورة، وازدادت عمارتــها رغم الانقسامات والفتن الداخلية التي تنتاب قراها(18).

إن تلمس الحقيقة التاريخية عن ماضي المنطقة لا غنى لنا عنه لفـــهم الإطـــار الاقتصادي والبشري الذي نشأ فيه الأقاوي. وفي ظل أسرة آل مبارك الأقـــاوي ستعرف واحة أقا توسعا وتطورا مهما.

2 . الإطار الأسروي لنشأة الشيخ :

2 ــ 1 : أصل الأسرة وظروف استقرارها بأقـــا :

تجمع المصادر على إبراز مكانة الشيخ مَحمد بن مبارك الأقاوي ضمـــن مشايخ التصوف خلال القرن 10. وإن ملامح هذه الشخصية ، تبلورت محليـــا في مجال واحة أقا.

يفهم من الإشارات المهمة التي أوردها المختار السوسي حـــول أســـرة آل مبارك الأقاوي(19)، إلى أنها تنحدر من قرية "تنبكتو" بالسودان الغربي ، حيــث قبر جدها يحيى بن عبد الله. ثم استقر بعض أولاده بحاضرة "تامدولت" ، وبعــد خرابها نزح هؤلاء نحو قرية القصبة بأقا. تبدو أخبار الأسرة غامضة خاصـــة ما يتعلق بظروف استقرارها ، فلا نعرف على وجه التحديد متى استقرت بأقـــا ، وإن كان الراجح كما عند المختار السوسي ، قد حدث عقب تهديم "تـلمدولت"، وما رافق ذلك من حركية وديناميةبشرية بمنطقة الدير ، وتذكر الروايـــات أن أصل الأسرة من تنبكتو حيث مدفن جدها يحيى بن عبد الله ، ثم انتقـــل فـــرع منها(محمد بن يحيى) إلى "تامدولت"، بعدها هاجرت إلى قرية القصبة.إن هـــذا الاستقرار يشكل مرحلة متميزة في مسار تنقل الأسرة، إلا أن أخبـــار أدوارهـــا الدينية والاجتماعية والاقتصادية مجهولة قبل بروز شخصية محمد بن مبـــارك الأقاوي. وتبقى الإشارة الوحيدة إلى أدوار بعض أفراد الأسرة ، هي علاقة ابن الشبكي بزاوية يعزى ويهدى(20)، مما يبين المكانة التي يحظى بها بين صلحـــاء المنطقة.

كما يفهم من التوزيع المجالي لأبناء محمد بـــن يحيـــى (أقـــا ، دكالـــة ، الشبانات، مجاطة، هشتوكة...(21)، الرغبة في توسيع قاعدة الأســـرة ، وإتاحـــة فرصة التأثير عبر مجالات واسعة.

أما من حيث نسب الأسرة، فالثابت أنها تتبنى النسب الجعفري كغيرها من المجموعات البشرية النازحة عن تامدولت(22). ولا نعرف إن كانت الأسرة تحمل هذا النسب على عهد الشيخ الأقاوي، أو أنه أثير في فترة ظهر فيها نقاش حول مسألة الانتماء العربي لبعض الأسر السوسية(23). فمن المعروف أن اختيار النسب أمر تحدده خصوصيات الذهنية المحلية، حيث يصبح شرف النسب ركنا أساسيا للحصول على المشروعية والحضوة الاجتماعية.

ومهما يكن ، فإن أسرة آل الأقاوي ، استقرت بقرية القصبة، أي في مجال تنخره الحروب، وإن اشتهار الأسرة بالعلم والصلاح، منحها السلطة المعنوية الكافية للقيام بأدوار معينة، فتوطدت العلاقة بينها وبين سكان المنطقة.

2 ـ 2 : لمحات عن نشأة وتكوين الشيخ :

لا نعرف إلا النزر القليل عن حياة الأقاوي ، وتبقى الإشارات القليلة التي ترد بالمصادر هي المعتمد لرسم صورة تقريبية عن مسار حياته.

نشأ وترعرع في أحضان عائلة يعتبر أفرادها من العلماء المتصوفة، لذا وجد نفسه محاطا برعاية خاصة في وسط مشحون بالقيم الصوفية(24). وكما هو الشأن بالنسبة لأقرانه، تلقى مبادئ القراءة والكتابة بقريته. ولا نعرف إن كان قد خرج للتحصيل العلمي، أم أنه اقتصر على المراكز العلمية المحلية ، لإرضاء نهمه العلمي. بيد أنه لا يستبعد أن يكون قد توجهت به همته بعد ذلك للاستزادة من العلم والتصوف خارج المنطقة. وكان اتصاله بالشيخ الجزولي(25) ذو أثر مهم في تكوين شخصيته الصوفية ، وساهمت في تعميق وتوجيه فكره. يكفي التأكيد هنا على أهمية هذا الاتصال، في إضفاء السمعة والشهرة العلمية والدينية على مترجمنا، وحافزا للانصراف إلى التدريس بمسقط رأسه ، حيث انعقدت أولى حلقات تدريسه، والتف حوله عدد كبير من التلاميذ والمريدين. إن هذه المعطيات التي تدخل في تكوين الشيخ، تؤكد لنا مدى حضور البعد الأخلاقي والصوفي في التكوين التربوي والعلمي بالمراكز السوسية أنذاك.

2 ـ 3 : تأسيس الزاوية : الأسباب والأبعاد :

لا نعرف بالتحديد متى وجدت زاوية أقا ، غير أن تأسيسها يستجيب لضرورة ملحة آنذاك، وهي تزايد إقبال الطلبة والمريدين على الشيخ، فكان أن فكر في إيجاد مكان لإيوائهم، وما لبث أن التحق بهم وسكن معهم(26).

على أي ، فعمل ونشاط الشيخ عرف انطلاقته الأولى من الزاوية ، التي أصبحت تعرف توسعا مهما باعتبارها من الفروع الرئيسية للطريقة الجزولية. وهذه الأهمية تعني الزيادة في استقطاب المريدين والطلبة، مما يشكل الدعامة

الروحية والاجتماعية للزاوية، كما تعزز في نفس الوقت أدوار الشيخ في علاقاته مع الجماعة.

* فمن الواضح أن الزاوية قد حظيت باعتراف وقبول الجميع ، وتتميز بحرمة كبيرة سواء بمنطقة الدير أو بقرى وقبائل الأطلس الصغير وسهل سوس.

* للإشارة، فالزاوية تدخل ضمن شبكة الزوايا الجزولية، ومن مميزاتها ظهور طائفة من التلاميذ والمريدين من مختلف المناطق. على هذا الأساس احتضنت الزاوية حركة علمية، صوفية على غرار الزوايا الأخرى(27).

* إن موقع الزاوية، سمح لها بالاتصال بمحاور التجارة عبر مسالك الصحراء. ويبدو أن لها مصالح اقتصادية ، انطلاقا من تواجدها غير بعيد عن الطرق التجارية.

إن التفسيرات التي قدمناها تسير في اتجاه توضيح مغزى تأسيس الزاوية، التي أضحت مؤسسة دينية / اجتماعية لا غنى عنها للجماعة. فلحظة التأسيس " يلازمها استقرار بشري وتثبت للجماعة وتحول اجتماعي"(28). وبالمقابل تساعد الجماعة على إبقاء الريادة الروحية الاجتماعية في دار الشيخ، عبر انتقال المشيخة من الأباء إلى الأبناء(29).

أما دور الزاوية في ربط العلاقات مع المراكز الدينية الأخرى، فغير واضح، ما عدا ما تشير إليه المصادر من أن هناك تنسيق بين أقا وتيدسي(30). كما لم تنقطع الاتصالات مع الزوايا السوسية الأخرى_إيمي نتاتلت ، تيلكات، تزركين) (31). ولا يستبعد كذلك أن تكون لمتصوفة سوس آنذاك علاقات واتصالات مع متصوفة الشمال(32). دون أن ننسى زيارة بعض فعاليات التصوف بالشمال لسوس : كعبد الله المدغري ، ومحمد بن يوسف الترغي(33).

3. أبعاد شخصية الأقاوي :

3 ـ 1 : البعد الروحي :

يعتبر الأقاوي علما من أعلام التصوف، وتجمع المصادر على ولايته وصلاحه وورعه. إذ عادة ما ترد أوصافه مقرونة بصيغ مثل: القطب الكامل (34)، الولي الكبير(35)، صالح من المرابطين(36)، الشيخ الزاهد، المسكين ...(37) وكان ذا قدوة في الاستقامة ومثالا في العفة. وتنسب إليه عدة كرامات.

أما من حيث طريقته الصوفية، فيمكن ربطها بالجزولي، ولا نعرف طبيعة اتصاله بها. هل عن طريق التتلمذ المباشر، أو عبر تلاميذه. ومع أننا لا نعرف الكثير عن علاقته بالشيخ الجزولي، إلا أن الثابت أنه قد حصل على درجة ما

في إطارها على نشر الطريقة.كما أن الشيخ الأقاوي لم يكن يتبع اتجاها صوفيا جامدا. وإنما جعله فعالا وعمليا وذلك بالمزج بين التقوى والتربية الروحية والحياة العملية. ففي إطار الوسط الذي عاش فيه الشيخ، يصبح الصالح مقصودا في ذاته بسبب ورعه وصلاحه وقدسيته، ولكونه مجاب الدعوة. ولم يركن الأقاوي إلى الخلوة والاعتكاف والعزلة والزهد في سلوكه اليومي إلا في السنين الأخيرة من حياته عند ما أصيب بالعمى(38). وكانت وفاته سنة 924–1518 (39).

أما من حيث إنتاجه، فلم يصلنا منه أي شيء، وهذا لا يرجع إلى عدم اهتمامه بالكتابة، وإنما إلى ضياع الكثير مما كتبه، وأملنا مستقبلا في العثور عليه حتى نتمكن من رصد طبيعة أفكار الشيخ الصوفية.

3 ــ 2 ــ البعد الاجتماعي :

3 ــ 2 ــ 1 : مظاهر قدسية الشيخ من خلال بعض كراماته : تتفق المصادر التي تناولت شخصية الأقاوي ،على إبراز مدى الاحترام والتقدير اللذان يحظى بهما لدى سكان المنطقة. وكانت علاقته بالمجتمع السوسي مشحونة بالقداسة ،ويبدو أن مبررات هذا التصور في نظر الناس مستوحاة من الأهلية الصوفية في حماية المجموعة(40)، خاصة في وسط قبلي تنخره الصراعات ، ومرتبط بشكل وطيد بخيبة الأمل من جراء الضغط البرتغالي انطلاقا من السواحل.

لقد أفضى كثرة اعتقاد العامة في قدسية وصلاح الأقاوي ، إلى حضور الكرامات في فعله وعلاقته بالمجتمع(41)، واشتهر في وسط القبائل بالقدرة على خرق العادة، وأن أعماله تخرج عن المألوف. لذا سنلقي نظرة سريعة على مضامين البعض من هذه الكرامات، وبالتالي استجلاء تداعياتها الاجتماعية:

* قصة القفاف(42): مضمونها قراءة ما في ضمير أناس يتحدثون عن علامة صلاح الشيخ، لذا أمر أصحابه بتهييء الطعام في القفاف المصنوعة من ورق النخل. أي حلول البركة في إحضار الطعام بشكل يثير الإعجاب في غير مكانه. ويمكن مقاربة هذه الكرامة من جانب كونها تحاول التغلب على الفقر المادي وقضاء الحاجيات الأساسية في مجال يتميز بندرة الموارد، وسيادة أشكال تخزين المؤن من أجل استعمالها في الفترات العصيبة.

* قصة الأعرابي (43) : الذي لم يحترم فترة الهدنة التي سنها الشيخ بين القبائل، وذلك باعتدائه على حيوان اليربوع. إن خرق القاعدة وعدم الانضباط لأوامر الشيخ ، جعله عرضة لنفس الأذى الذي ألحقه بالحيوان.

إن ما يمكن استنباطه من هذه الكرامة هو مقدار الجور الممـــارس مــن طرف الرحل الأعراب كقبائل متحركة، كما تنطوي الحكاية علــى مؤشــرات حول صعوبة مراقبة بعض القبائل، وعدم ركونها إلى النظام والانضباط.

* قصة المرأة والعرجون(44) : تحمل نوعا من الفصل الخارق، وتعكــس مدى الاستنجاد ببركة الشيخ في لحظة الانتكاسة لتجاوز الضيق والعجز.

* قصة العكاز(45): من الكرامات الشائعة بمنطقة سوس، وتنسب إلى عــدد من صلحاء المنطقة. وهي تجسد نوعا من الرهبة والحرمة التــي تحــاط بــها شخصية الأقاوي. وتعكس ما هو مترسخ في مخيلة الذاكرة الشـــعبية مــن أن مقامه له رهبة وخشية ، ويهابه الجميع.

إجمالا فهذه الكرامات تحدد علاقات ما بين الشيخ والجماعة، وكيــف يتصــور السكان بمختلف شرائحهم شخصية الأقاوي على أساس أن الدلالات المحمولــة في أقواله وأفعاله تدخل ضمن المواقف الغير العادية وخوارق الأمور.

3 ــ 2 ــ 2 : الخطوات العملية للشيخ في التأثير على القبائل: اســتطاع بفضل ما يعرف به من صلاح ، أن يفرض نفوذه على القبائل السوســية(46) . وكان على وعي بوقع الانقسامات والخلافات في العلاقات بين القبائل، لذا عنــى عناية كبيرة بكل ما يمكن أن يساهم في بلورة الشعور بالوحدة والتضامن بينــها، ويبدو أن إلمامه بأحوال البلاد ، ومقامه في مجال بشري متحرك، ساعده علــى تمثل المعطيات المتداخلة، ومن ثم استوحى منها السبل لتجاوز الأزمة. وكــان الوحيد آنذاك الذي يمكنه زعامة القبائل وتجاوز الأزمة لما كان يتمتع بــه مــن سمحة ووجاهة (أوامره ذات مصداقية شعبية)(47). كما أضحت زاويتــه فــي خضم الأزمات ملجأ يحتمى بها، إلى جانب امتداد تأثيره نحو الشمال (الأطلــس الصغير وسهل سوس)عبر مريدين وتلامذة، وهي مجالات خاضعــة بدرجــات متفاوتة لنفوذ الطريقة الجزولية.

إن ما توحي إليه الكتابات حول الفترة ، أن مشروع الأقاوي كــان وليــد الضغوطات البرتغالية على القبائل، أو من يأس هذه الأخيرة من قــدرة الدولــة على مواجهة الأحداث. بيد أن تداعيات هذا العمل تستمد مبرراتها من الوســط والبيئة المحلية، وأنها من التقاليد المعروفة لــدى صلحــاء المنطقــة. وهنــاك مظهرين في علاقة الشيخ بالقبائل:

* دور التحكيم والوساطة في الصراعــات بيــن القبــائل(48)، وتشــير المصادر إلى فعاليته في حسم النزاعات. وترتبط مصداقية هذا الــدور بحيــاده التام تجاه ما يقع حوله من النزاعات، لذا يستشار في كل أمور الحيــاة. وممــا يبين تشبثه بمسعاه السلمي لفرض الانشقاق ومعارضة أشكال التوتر التي تنخــر

الجماعة، أنه أقنع شيوخ القبائل للحد من أشكال الاضمحلال ، وتخطي الانتماءات القبلية الضيقة نحو خق وحدة مذهبية / دينية أساسها المالكية والجزولية.

* من إفرازات هذا الدور، أنه أحكم علاقته بالقبائل السهلية والجبلية على السواء. وكان يتدخل لفرض أوفاق أيام معلومة لا تحمل فيها الأسلحة (49)، وتكبت خلالها جميع مظاهر البغضاء ، كما يحرم فيها حتى الاعتداء على الحشرات والحيوانات.

والمتأمل في هذه التدابير يهدي إلى أنها مصبوغة بصبغة نفعية، حيث تكون فترات العهد / الهدنة مناسبة للقيام بأعمال الحرث والسقي والحصاد وقطف الثمار. كما تضمن إلى حد ما الأمن والاستقرار على طول الطرق التجارية، وداخل الأسواق، إلى جانب أنها تسمح بتحسيس السكان بطبيعة أوضاعهم المتردية.

إن ما جعله يقف مواقف الزعامة الروحية / الرمزية بجرأة كبيرة، هو تحركه بوعي، وقدرة على تشخيص مشاكل محيطه القبلي، وما يتمتع به من سلطة مطلقة على سكان سوس. لذا كان مصير مسعاه النجاح، ووصلت أصداء عمله إلى كل المناطق. فجميع المؤشرات تدل على أن الأقاوي، باعتنائه البالغ بهذه الإجراءات، كان يمهد بفعالية إلى قيادة الجهاد(50) ، بيد أن تحليل مغزى وأبعاد هذه الممارسات لابد وأن يؤدي بنا إلى إثارة البعد السياسي لشخصيته.

4 - الأقاوي وآفاق التبلور السياسي بالمنطقة :

نهدف من هذه النقطة، فهم التلاقي التاريخي بين الأشراف والمتصوفة وانبثاق الحركة السعدية، ودور الأقاوي في ذلك. إذن ماذا يمكن أن نقول عن هذه العلاقة التي تعتبر في نظر المصادر السبب المباشر في التحول السياسي بالمنطقة ؟

للإشارة فإن شهرة الأقاوي في تدبير شؤون القبائل لفتت إليه الأنظار، وسمحت له بتأسيس حظوة كبيرة. وكان عمله فرديا، لا تربطه بالسلطة الوطاسية أي علاقة تفويضية. لا ترد تفاصيل حول طبيعة المدى الذي أخذه تأثيره على القبائل في أعين البرتغاليين، فالشيخ كان نسبيا في مأمن من هذا الخطر .لكن محاولات هؤلاء للتوغل داخل المنطقة(51)، وكذا الأضرار الناتجة عن حصار القبائل في مجالات جبلية وحرمانها من السهل ، كان له الأثر الكبير في تأجيج عنصر الجهاد كضرورة مقدسة. لهذا أسرع السكان إلى الشيخ "فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على

مباكرتهم بالقتال"(52). وحسب ما يذكره مؤرخوا الفترة المدروسة، فإنهم طلبوا منه أن تجتمع كلمتهم عليه ويعقدون له البيعة، واستعطفوه لكي يتزعم حركة الجهاد. يراد من ذلك تقوية النزعة القتالية للقبائل وتنظيم مقاومتها، وهذا يعني عرض الخلافات والصراعات جانبا نحو مدافعة الأجنبي.

وفي هذا الإطار اكتسى التنسيق بين أقا وتيدسي طابعا سياسيا ، حيث أصبحت أقا مركز سن الإجراءات ومنطلق الدعم المعنوي والروحي للمجاهدين، بينما أضحت تيدسي معقل تجميع المحاربين بقيادة بركة بن محمد التيدسي(53) وتوجيههم نحو مهاجمة المراكز البرتغالية الساحلية.ولسنا ندري هل ظل الشيخ الأقاوي يتردد في أمر قيادة الجهاد ، وأغلب الظن أنه قرر بوضوح ربط جهاد القبائل السوسية بأسرة شريفة مستقرة بقرية تاكمدارت(54). وقد تبلورت في هذا الصدد روايتان:

* الأولى : تشير إلى أنه أمر قبائل سوس بالانقياد إلى محمد القائم بأمر الله زعيم الأسرة(55).

* الثانية: أوعز الشيخ إلى قبائل جزولة بمبايعة السلطانين الشريفين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ ، وأمرهما بالعدل والجهاد(56).

وكان اتجاهه نحو أسرة القائم بأمر الله مدفوعا بعدة أسباب منها : نشاطها الجهادي(57) شرفها ،عدم استفادتها من امتيازات الدولة المرينية(58). وبذلك توفق في حدسه السياسي، وفي اختياره للأسرة القادرة على قيادة القبائل.

خاتمة :

هكذا نحن إزاء شخصية صوفية ــ علمية ، ميزت بأعمالها ومواقفها فترة انتقالية من تاريخ المغرب. إن مسار حياته، والأعمال التي اضطلع بها، تعبر عن حساسية جماعية مكبوتة في مجال تنخره الاضطرابات.

بدراستنا لبعض ملامح هذه الشخصية، نكون قد أعطينا صورة تقريبية عن أهمية الصلحاء والزوايا، ومدى هيمنتها خلال القرن 16، وظروف التلاقي بين التيار الجزولي المعتمد على شبكة من الزوايا المحلية، وبين الأشراف السعديين. وفي هذا الإطار كان أحسن جزاء تحصل عليه الأسرة، هو رعاية السلطة السعدية لها عبر مكافئة أبنائها (ظهائر الاحترام والتوقير)، وربط الاتصال بأفراد الأسرة. ومن الشواهد على ذلك هي مكانة أحفاد الشيخ لدى البلاط السعدي خاصة في عهد عبد الله بن مبارك الأقاوي، الذي ساهم كجده في التصدي للانتماءات الداخلية، وتعميق التقارب بين أبناء المنصور أثناء صراعهم على الحكم.

وإذا كنا قد تعاملنا مع شخصية محمد بن مبارك الأقاوي، بالشكل الانتقائي، فإن مرد ذلك محدودية وقلة ما كتب عنه. لذا أملنا أن يتحصل لدينا الكثير عن أخباره من خلال ما تجود به الخزانات الخاصة بالمنطقة.

الهوامش:

1) ــ الأفراني (محمد الصغير) : نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي. باريز 1888 ، ص: 10.

ــ الناصري (أحمد بن خالد) : الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء ،1956 ج 5 ص : 6.

2) ــ حتى القبائل التي كانت تشعر بوحدة اثنية أو مجالية (إيلالن على سبيل المثال) لم تمنعها الظروف من الدخول في صراعات تتباين حسب الأولوية.

ــ البقدوري محمد : إتحاف أهل البدو والقرى بسلالة زينب الكبرى (مخطوط).

3) ــ الوزان (حسن) : وصف إفريقيا ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط 1983 ، ج I : 144.

4) ــ الحساني (إبراهيم): ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور.(مخطوط).

5) ــ الأفراني : مصدر سابق ، ص: 10.

ــ الناصري : مصدر سابق ج 5 ص : 6.

6) ــ المختار السوسي : خلال جزولة ، تطوان ج 2 ، ص: 168.

- Robert Montagne : Les Bérbéres et le Makhzen dans le Sud du Maroc. P : 53.

7) ــ مجهول برتغالي : سقوط حصن سانتاكروز . تعريب أحمد صابر 1994.

8) ــ نشير إلى أن الصلاح لم يكن وليد تلك الظرفية، بل هو حاضر بأشكال مختلفة قبل القرن 16، إنما الجديد هو اختراقه للحياة العامة من خلال أدوار معروفة.

9) ــ نسبة إلى محمد بن سليمان الجزولي (ت 1467–970). وكان يحظى بتقدير كبير بين قبائل المنطقة ، نظرا لمواقفه الفكرية والعملية التي أصبح يتطلبها الظرف السياسي آنذاك، إلى جانب تعاليمه البسيطة. فقام يدعو إلى ضرورة الوحدة ، وتعميق تقاليد الجهاد ، ووسيلة ذلك مريديه المتوزعين عبر أنحاء المنطقة.

ــ الفاسي (محمد المهدي): ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ... تحقيق عبد الحي العمراوي وعبد الكريم مراد 1989.

- Micheaux Bellaire : Les confréries religieuses au Maroc. A.M XXVII 1927, P : 52.

10) ــ يلاحظ أن أهم الزوايا تأخذ أماكن الرباطات القديمة ، وعادة ما تبنى في أماكن نائية بعيدة عن الحواضر.

- Meunié (J.D) : Le Maroc Saharien…T1 , P : 41.

11) ــ – Meunié : OP. CIT . P : 426 – 429.

12) ـــ القبلي (محمد) : مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسـانية ، الرباط ، عدد مزدوج 3 - 4 - 1978 ، ص: 56 – 57.

13) ـــ Meunié (J.D) : Ibid , P : 428.

14) ـــ الوزان ، مصدر سابق 1 ، ص : 54.

15) ـــ البقدوري : الإتحاف (مواضع متفرقة).

16) ـــ خلق هذا الحدث وضعية قبلية غير مستقرة من خلال انشطار وتشتت سكانها، ونزوح السواد الأعظـــم منهم نحو مجالات جديدة (أقا ، إيلالن ، إيسي ، مرزت ، إكنان ...).

17) ـــ المختار السوسي : المعسول . ج 4 : 5 / ج 10 : 199 / ج 9 : 150.

- Meunié (J.D) : Op cit. T1 , P : 60.

18) ـــ الوزان : وصف إفريقيا . ج 2 : 117.

ـــ مرمول كربخال : إفريقيا . ترجمة محمد حجي وآخرون.1989 ، ج 3 : 144.

19) ـــ السوسي : المعسول ج 18 ، ص: 166 - 170.

20) ـــ السوسي : المعسول ج 18 ، ص : 166.

21) ـــ نفسه ، ص: 169.

22) ـــ البقدوري : الإتحاف (مخطوط) ص: 9 - 10.

23) ـــ نتساءل لماذا لم تدع الأسرة النسب الشريف ، علما بأن هذه الفترة (القرن 16) عرفت كـــثرة مدعـــي النسب الشريف.

أنظر : - Laroui (A) : Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain 1830 – 1912. Maspero, 1979. P : 142.

24) ـــ المعسول ج 18 ، ص : 170.

25) ـــ نفسه ، ص: 171.

26) ـــ نفس المصدر ، ص: 170.

27) ـــ نفســـــه .

28) ـــ Morsy (M) : Les Ahnsala ... La haye, Munton 1972, P : 45.

29) ـــ أحمد توفيق : المجتمع المغربي في القرن 19 (إينولتـلن 1850–1912). الدار البيضـــاء ، 1983. ص : 424.

30) ـــ الناصري : الاستقصا ، ج 5 ، ص : 7.

31) ـــ الركني أحمد : شفاء القلوب في مناقب محمد بن يعقوب التاتلي (مخطوط) ، ص: 23.

ـــ المعسول ، ج 18 : 171.

32) ـــ جواهر السماط في مناقب سيدي عبد الله الخياط م.خ.ع 1185د.

33) ــ الحضيكي (محمد) : طبقاته. تحقيق أحمد بومزكو ، بحث لنيل د.د.ع ، الرباط 1994 ، ص :11 ، 441.

34) ــ البعقيلي (محمد) : مناقب البعقيلي ، تحقيق المختار السوسي، الرباط 1987 ، ص: 27.

35) ــ الأفراني : النزهة ، ص: 11.

36) ــ مرمول كربخال : إفريقيا ، ج 3 ، ص: 144.

37) ــ الوزان : وصف إفريقيا ، ج 1 ، ص: 144.

38) ــ الوزان : وصف إفريقيا ، ج 1 ، ص: 144.

39) ــ أرخ المختار السوسي لتاريخ وفاته سنة 915 / 1510. إلا أننا نرجح التاريخ الأول، باعتبار أن الوزان ، حين زار المنطقة سنة 919 / 1514 اتصل بالشيخ، وقال عنه إنه "زاهد مشهور ... وكان المسكين أعور لم أر منه في الواقع غير الصفاء واللطف والإحسان". وصف إفريقيا ، ج 1 ، ص: 145.

40) ــ BERQUE (J) : Structures sociales du Haut Atlas.P.U.F, 1978, P : 237.

41) ــ الحضيكي : طبقاته ، ص: 203.

42) ــ البعقيلي : مناقبه ، ص: 27.

43) ــ نفسه ، ص :28.

44) ــ الدوحة ، ص: 114.

45) ــ الحضيكي ، مصدر سابق ، ص: 203.

ــ البعقيلي : مناقبه ، ص: 28.

46) ــ ابن عسكر : الدوحة ، ص: 114.

47) ــ المعسول ، ج :18 ، ص: 171.

48) ــ المرادي (عبد الحميد): لمحات من تاريخ سوس (مخطوط) ص: 30.

ــ الحضيكي : طبقاته ، ص: 203.

49) ــ الدوحة ، ص: 114.

50) ــ Ricard (R) :Le Maroc Septentriminal au XV siècle. In Hésp , T XXXIII, facc 2 et 4, 1936

51) ــ مصطفى ناعمي : الصحراء من خلال بلاد تكنة ، الرباط ، 1988 ، ص: 113.

52) ــ الأفراني : النزهة ، ص: 10.

ــ الحضيكي : طبقاته ، ص: 151.

53) ــ الناصري : الاستقصا ، ج 5 ، ص: 7.

ــ الحضيكي : طبقاته ، ص: 151.

54) ــ الأفراني : النزهة ، ص: 11.

55) ــ نفســــــه .

56) ــ ابن عسكر : الدوحة ، ص: 114.

57) ــ الناصري : الاستقصا ، ج 5 ، ص: 10.

58) ــ القبلي : مرجع سابق ، ص: 59.

وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه